المحاضرة الثانية:وظيفة الشعر:

إن الشعر كأي نشاط إنساني لا بد له من وظيفة يؤديها ومن دور يقوم به في الحياة على مختلف أصعدتها، وذلك لأن النقاد يرون بأن الوظيفة تتعدد بتعدد ظروف الحياة من اجتماعية، وسياسية، وفكرية، وحضارية وغيرها، ولهذا يمكن أن نعتبر وظيفة الشعر طرفا أساسيا في العملية الشعرية؛ أي هي ظاهرة ملازمة للعملية الإبداعية، ونقصد بالوظيفة طبيعة العلاقات التي يتصورها النقاد القدماء بين النص الشعري ومتلقيه.

فكلمة " الوظيفة "على الرغم من أنها مصطلح حديث إلا أن مضمونه قديم لأن النقاد العرب القدامى وأصحاب المعاجم قد تنبهوا إلى هذه الكلمة في كثير من كتاباتهم.

وفي المعاجم العربية نجد ماجاء في معجم العين « الوظائف جاء جمع وظيفة، والوظيفة في كل شيء ما تقدمه كل يوم من رزق أو طعام أو علف، أو شراب .قال الشاعر:

أبقت لنا وَ قَعات الدهر مَكرمُة ما هبّت الريح والدنيا لها وَظَفُ

وهي شبه الدول مرة لهؤلاء، ومرة لهؤلاء، أي جعلت وظيفة الناس وقد وظفت له توظيفا ووظيفا، ووظفت على الصبي كل يوم حفظ آيات من كتاب الله»[1]

وفي المعجم الوسيط فقد ذكر أن الوظيفة:« ما يقدر من عمل أو طعام أو رزق وغير ذلك في زمن معين وهي العهد والشرط والمذهب والخدمة المعينة»[2].

كما يرى بعض النقاد أن وظيفة الشعر في الجاهلية هي وظيفة تمثل المنحى الخلقي النفعي، وذكروا أن الشعر نشاط حيوي فعال، وطاقة خيرة مؤثرة؛ بل كان بمثابة الوسيلة الإعلامية التي يعتمد عليها المجتمع في الجاهلية، فالشاعر كانت له مكانة سامية في هذا المجتمع، فهو يدافع عن قبيلته فهو في خدمة هذا المجتمع الصغير، وإلى هذه الصلة الاجتماعية يرجع ذلك الفرح العظيم بالشاعر حين ينبغ في قبيلته.

ومن وظائف الشعر نذكر:

01/ الدفاع عن القبيلة:فالشاعر يدافع عن قبيلته بالقول المؤثر فكأنه محامي أو صحفي هذا الزمان، يمجد قبيلته، ويشيد بمآثرها وأعمالها، ويصور قوتها، ويهاجم المعادين لها، فكان في خدمة قبيلته بلسانه وسيفه، لذلك فإن النقاد اهتموا بتحديد وظيفة الشعر حيث أصبحت هذه القضية مظهرا وظيفيا في تنظيرهم للشعر فقد تحدثوا عن وظيفة الشعر في سياق تقييمهم لمكانة الشعر ومهمته في التعبير عن قضايا الجماعة، فبذلوا جهودا كبيرة في سبيل تحديد وظيفته،فالشعر سجل يحفظ مفاخر وفضائل القبيلة، ويحيطها بهالة من الهيبة والقوة؛ أي أن الشعر يكون بمثابة حاجز يحمي القبيلة من كل عدو.

02/حفظ المعارف والعلوم:ومن النقاد الذين اهتموا بهذه القضية نجد:**ابن طباطبا** العلوي حيث يرى أن وظيفة الشعر تتجلى في حفظ المعارف والعلوم، فيقول:« واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها وأدركه عيانها، ومرت به تجاربها

وهم أهل صحونهم البوادي وسقوفهم السماء فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها، وفيها وفي كل واحدة منها في فصول الزمان على اختلافها من شتاء وربيع وصيف وخريف من ماء وهواء ونار وجبل ونبات وحيوان وجماد وناطق وصامت ومتحرك وساكن وكل متولد من وقت نشوئه وفي حال نموه إلى حال انتهائه.»[3]

فالشعر حسب ابن طباطبا يمكن أن يمد المتلقي بمعارف واضحة عن هذا العصر، فكل شيء في البيئة المحيطة بالشاعر هي مجال له، ويمكنه أن يخبر بها وأن يضمن شعره كل المعارف عنها لتكون ذخيرة المستقبل.

كما نجد كذلك أن ابن قتيبة قد سار على نهج ابن طباطبا،في رؤيته لوظيفة الشعر،فهو يرى كذلك أن له وظيفة حفظ المعارف والعلوم،حيث يقول:« وللعرب الشعر الذي أقامه الله تعالى مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعا، ولآدابها حافظا ولأنسابها مقيدا، ولأخبارها ديوانا، لا يرث على الدهر ولا يبيد على مر الزمان»[4].

ومن خلال هذا الطرح يتضح أن ابن قتيبة كذلك هو الآخر يرى أن وظيفة الشعر تتجلى في حفظه لعلوم العرب وتاريخها، وكذلك يعتبر سجلا لأحداث الحياة، وتراث الماضي بصورة واقعية، فهو ديوان الأخبار ومستودع الأيام، وحافظ للأدب والأنساب، وحافظ للمآثر الكريمة، والمفاخر الحميدة والخصال المستحبة؛ لأن رواية الشعر تذكر الناس بهؤلاء الأمجاد وتخلد عظمتهم على مر الأيام، وبالتالي فالشعر هو المادة الوحيدة التي

يلجأ إليها الباحث لمعرفة الزمن القديم ومادته الثقافية فهو أفضل وسيلة لذلك.

03/وظيفة أخلاقية: فالشعر يعرفنا على نوعية الأخلاق السائدة في المجتمع، فالشعر القديم عرفنا بالأخلاق المحمودة التي كانت العرب تحبذها مثل الكرم، والشجاعة والحلم والعفو والإحسان وأصالة الرأي والأنفة ... الخ، وكما أطلعنا على الأخلاق المذمومة التي لا يحبذها العرب قديما مثل البخل والجبن والجهل والغدر والخيانة والكذب ... الخ

فالشعر حسب رأي ابن طباطبا يبين لنا عادات القدامى وأخلاقهم ومذامهم

والشعر أيضا حسب رأيه له وظيفة أخلاقية تتمثل في تغيير الأخلاق المذمومة وتحويلها إلى أخلاق محمودة، فيقول:« فإذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى الحلو اللفظ، التام البيان، المعتدل الوزن مازج الروح ولاءم الفهم، وكان أنفذ من نفث السحر ... وأشد إطرابا من الغناء فسل السخائم وحلَّلَ العقد، وسخي الشحيح وشجع الجبان»[5]فالشعر لشدة تأثيره على النفوس يمكن أن يغير الأخلاق الذميمة إلى أخلاق محمودة؛ ولكن ذلك لا يتم إلا بالامتزاج الروحي بين الشعر ومتلقيه والملاءمة [1]العقلية بينهما عندئذ ينتج التغيير الأخلاقي لدى المتلقي تلقائيا.

04/مصدر الحكمة: والشعر عنده أيضا-ابن طباطبا-يبعث النفس على الراحة القلبية نتيجة تضمنه للحكمة الصادقة في فكرته المنبعثة من تجربة واقعية، والعرب قد أودعت أشعارها الحكمة؛« لأن الحكمة غذاء الروح،

فأنجع الأغذية وألطفها» **وفي هذا يقول عليه السلام:**«إن من الشعر لحكمة»[6]

---

[1] الخليل بن احمد الفراهيدي:كتاب العين،ترتيب ومراجعة:داوود سلوم،وداود سلام العنبكي، وانعام داوود سلام،مكتبة لبنان ناشرون،بيروت،لبنان،ط 1،2004م، ص908.

[2] المعجم الوسيط: المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع. ص1042

[3] ابن طباطبا:عيار الشعر:ص16.

[4] عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال:نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا،دار الفكر العربي،ص123.

[5] ابن طباطبا:عيار الشعر:ص22.

[6] ابن طباطبا:عيار الشعر:ص21.